نداء الشهداء

الموضوع: نداء الشهداء

الزمان والمكان: 29 ذي الحجة 1417هـ ق/ طهران

الحضور: أُسر شهداء محافظة طهران والقائمين على مؤتمر إحياء ذكرى 36 ألف شهيد من محافظة طهران

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا المجلس حافل بالأبهة، ومونق من الناحية المعنوية بالجلال والبهجة، ويغمر أجواءه عطر الشهادة.

في هذه الأيام غدت أجواء طهران ــ والحمد للّه ــ فوّاحة بطيب أعطر الذكريات لآلاف الشهداء الأعزاء والعظام من أبناء هذه المدينة.

ومن المتيقّن به أنّ فضيلة عوائل الشهداء الكريمة تأتي في عظمتها من بعد فضيلة الشهداء مباشرة.

أنتم العوائل الذين كنتم على مدى سنوات الدفاع المقدّس تذبّون عن حصون الشهادة, وتذودون عن حياض الفضيلة.

لقد استطاعت معنوياتكم ومعنويات أبناء الشهداء ــ التي سمعنا الآن بعض أبعادها الرائعة في الحديث الذي تفضّلت به الأم الكريمة لثلاثة شهداء، والابن العزيز لأحد الشهداء القادة طوال فترة الدفاع المقدس وما تلاه ــ أن تحافظ على عظمة النظام الإسلامي والمعنويات العالية لأبناء الشعب الإيراني، وتضعف معنويات الأعداء.

أول الواجبات حفظ طريق الشهداء

أشكر الأخوة في حرس الثورة, على مبادرتهم الطيّبة هذه لتكريم الشهداء.

تكريم الشهداء مطلوب من الجميع؛ من حرس الثورة، ومن الجيش، ومن قوات التعبئة، ومن مؤسسة جهاد البناء ومن مختلف دوائر الدولة.

يجب تخليد ذكرى الشهداء، وإحياء وصيانة مفهوم الشهادة، هذا المفهوم العظيم والقيّم والمؤثر الذي كانت دماء شهدائنا سبباً في إحيائه على الصعيد العالمي مرة أخرى.

إنَّ ما يتّسم بالأهمية هو حفظ طريق الشهداء، بما يعنيه من حراسة دماء الشهداء، وهذا أول واجباتنا، ونحن مسؤولون قِبال الشهداء، وليس هناك من هو مكلف، وآخر

غير مكلف، إلاّ أنّ المسؤولين ــ كبُرت مسؤوليتهم أو صغُرت ــ تثقل أعباؤهم بمثل هذا التكليف أكثر من سواهم.

الشهيد معنى كبير وحقيقة تثير الدهشة، ولكن بما أننا اعتدنا على مشاهدة الشهداء، وكثيراً ما شهدنا معالم التضحية والفداء والعظمة والطريق الذي انتهى بهم إلى الشهادة، بقيت هذه الحقيقة الوضّاءة خافية عنّا؛ كحقيقة الشمس التي تبقى لشدّة ظهورها خافية على من يراها على الدوام.

في ما مضى حينما كان الحديث يدور حول مثال من شهدائنا في العصر الحاضر، أو من شهداء صدر الإسلام ويشار إلى سلوكه وسيرته، كانت ثمة تغيّر واضح ومدهش يحصل في القلوب وفي النفوس، وحتى في الأعمال والنوايا.

فكل واحد من هذه الكواكب المنيرة بإمكانه أن يُضيء عالَماً بأسره، ومعنى هذا أنّ حقيقة الشهادة حقيقة عظمى, ولو بقيت هذه الحقيقة حيّة على يد مَن تقع على عاتقهم اليوم مسؤولية إزاء الشهداء، وتحفظ لها قدسيّتها ومكانتها، سيبقى تأريخنا المقبل يستقي العبر من تضحياتهم الكبرى، مثلما بقي التأريخ إلى يومنا هذا يستقي المثل السامية من دماء سيد الشهداء أبي عبد اللّه الحسين (عليه الصلاة والسلام) التي أريقت ظلماً؛ لأنّ ورثة تلك الدماء استثمروها في غاية الحكمة والتدبّر, وبأروع الأساليب وأبدعها للحفاظ على ثمارها.

ولعل حفظ دماء الشهداء لا يقل في مشقته أحياناً عن الشهادة ذاتها, والمشاق التي تحمّلها الإمام السجاد(عليه السلام) على مدى ثلاثين سنة، والصعوبات التي كابدتها زينب الكبرى (عليها السلام) سنوات طويلة، تدخل في هذا السياق؛ فقد كابدوا الكثير حتى استطاعوا حفظ هذه الدماء، ومن بعدهما لقي جميع الأئمةΓ مثل هذا العناء حتى عصر الغيبة.

ونحن اليوم مكلّفون بمثل هذا الواجب، مع اختلاف ظروف اليوم عما كانت عليه آنذاك؛ فحكومة الحق ــ أي حكومة الشهداء ــ قائمة اليوم والحمد للّه، فنحن إذاً في ظِلها مكلّفون بمسؤوليات جسيمة.

رسالة الشهداء نكران الذات

يستشف المرء من عموم القضية أنّ للشهداء حركتان, وموقفان في منتهى الروعة والعظمة، وكل واحد منهما يحمل نداءً عميقاً؛ أحدهما، موقف من الإرادة الإلهية المقدسة، وإزاء دين اللّه وعباده الصالحين، والموقف الآخر أمام أعداء اللّه, ولو أنكم وضعتم موقف الشهيد ومعنوياته ودوافعه، موضع التمحيص والدراسة لاتضح لكم هذان الموقفان.

أمّا ما يتعلق باللّه وعباده وأوامره, وكل ما له صلة بذاته المقدسة، يتلخّص بالإيثار والتضحية؛ فالشهيد قد آثر وضحّى للّه.

الإيثار معناه: إنكار الذات, وعدم إدخالها في الحسبان, وهذا أول موقف للشهيد, فلو أنه أقحم ذاته في الحسابات, وظنَّ بها, ولم يخاطر لَما بلغ هذه المنزلة.

الشبّان الذين قصدوا سوح الوغى وضحوا بأنفسهم على رمضاء خوزستان ــ التي تصل حرارتها 65 درجة ــ أو على جبال كردستان ــ وبردها القارس والثلوج ــ كانت لهم مساكن واُسر، وكان لكل منهم أبوان عطوفان، وزوجة عزيزة، والبعض منهم كان لهم أطفال يمثلون بالنسبة إليهم فلذّات أكبادهم، وكانوا يعيشون حياة دعة واستقرار؛ إلاّ أنهم تخلّوا عن كل هذا وقصدوا سوح القتال.

ما هي الرسالة التي كان يحملها هؤلاء الشهداء, ويفترض بنا استلهامها منهم؟ رسالتهم هي أنّ من يبتغي مرضاة اللّه، ويطمح لأن يكون وجوده نافعاً في سبيل اللّه ــ على طريق تحقيق الغايات الإلهية السامية في عالم الوجود ــ فعليه أن ينكر ذاته في مقابل الأهداف ذات الطابع الإلهي.

وليس هذا من نوع التكليف الذي لا يطاق.

حيثما تمسّكت فئة مؤمنة بهذه السمة انتصرت كلمة اللّه، وحيثما ارتعدت فرائص المؤمنين، كانت الغلبة ــ بلا جدال ــ لكلمة الباطل.

هذه الثورة انتصرت بفعل عوامل الإيثار والتضحية, التي تمسّك بها عباد اللّه المؤمنون، ووقع ما لم يكن يخطر بحسبان أي محلل؛ وذلك هو إقامة الحكم الإسلامي, وفي هذه النقطة من العالم بالذات، من كان يتوقع هذا؟ ومن كان يصدّق بحدوثه؟ ولكن بفعل مواقف الإيثار والتضحية على يد المؤمنين تحقق هذا الأمر, الذي ما كان متوقعاً تحققه؛ إذ فئة؛ مصطفاة من المؤمنين ــ ولا نقول كل المؤمنين ــ أنكرت ذاتها، والجميع مطالبون بالسعي لأن يكونوا ضمن هذه الفئة؛ لنيل هذه المنقبة.

كل موضع إنعدم فيه عنصر الإيثار، كما هو الحال في كل بقعة خَلَت منه، وكما هو الحال على امتداد التأريخ، وكذلك في عهد الإمام الحسين(عليه السلام) حين تنصّلت الأكثرية العظمى من المؤمنين والخواص عن واجبها، ونكلت وتراجعت، انتصرت حينها كلمة الباطل، وتسلّط يزيد على الرقاب واستمر الحكم الأموي تسعين سنة، وجاء عهد بني العباس ودامت حكومتهم بين خمس وست قرون.

وكان السبب الأساسي لكل هذا هو إنعدام الإيثار, وكانت النتيجة أنّ المجتمعات الإسلامية كابدت الكثير من العناء، وذاق المؤمنون أمرَّ أنواع الظلم.

إنّ الساحة واضحة غاية الوضوح, وعصرنا هذا ــ يا أعزائي ــ شبيه بمعركة أُحد؛ فإن أحسَنّا ستكون الهزيمة من نصيب العدو، ولكن إذا وقعت أبصارنا على الغنائم, ولاحظنا بضعة أشخاص يتكالبون على جمع الغنائم, وغلبتنا مشاعر الطمع, وتركنا مواضعنا وانهمكنا في الإستحواذ على الغنائم، تنعكس المعادلة حينذاك.

أنتم تعلمون كيف انعكست القضية في معركة أُحد، ولقد تكررت معركة أُحد على مدى تأريخ الإسلام.

القائد الربّاني الذي يرى بصفاء قلبه صفحة الحقيقة, انتدب لذلك الموضع فئة من المسلمين وأوصاهم بعدم مغادرة أماكنهم، وأن يحرسوا هذه الجبهة, ولكن ما أن وقعت أبصارهم على الغنائم وشاهدوا أفراداً يحوزون الغنائم، زُلزلت القلوب طمعاً, ولو استُنطق كلٌ منهم لقالوا: نحن أيضاً بشر، وقلوبنا تهوي مستلزمات العيش الرغيد.

هذا صحيح، ولكن لاحظتم النتائج التي أدى إليها هذا الخنوع أمام الأهواء البشرية التافهة؛ فقد كُسر ضرس الرسول(صلى الله عليه وآله)، وأُصيب بجراح، وغُلبت جبهة الحق، وانتصر العدو واستشهد الكثير من أكابر المسلمين.

نداء الشهداء يدعو إلى عدم الانصياع لهواجس الغنائم, هذا هو نداؤهم لي ولكم, ولجميع من يكرّم هذه الدماء الطاهرة المسفوكة ظلماً.

لا تنظروا إلى من يعصي ويتّجه إلى جمع الغنائم ﴿لا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾[1]، عليكم بأنفسكم, ولا يشغلنكم مَن اختار طريق الغواية, هذا ما يأمر به الإسلام, وما تدعو إليه دماء الشهداء.

يوم استشهد هؤلاء الأعزاء في الجبهة، كان بعض المخلّفين منهمكين في الكسب، وبعضهم الآخر غارق بجمع الأموال، وآخرون مُنكبيّن على انتهاز الفرص، وبعضهم الآخر كان منغمساً في الخيانة, أما الشهداء فقد ساروا صوب الجبهات بدون الالتفات إلى هؤلاء.

وكانت النتيجة هي أنهم استطاعوا حفظ النظام الإسلامي، وغدا كل واحد منهم اليوم كوكباً منيراً ونجماً ساطعاً, وعلى هذا يكون النداء الأول, هو نكران الذات أمام اللّه تعالى، وأمام عباده، وأمام الإرادة الإلهية, ويجب علينا استيعاب هذا النداء.

يا أعزائي، لا يمكن التغافل عن هذه الحقائق والمرور عليها مرّ الكرام؛ إنّها تستدعي من الإنسان العزم والإرادة.

---

[1] سورة المائدة، الآية: 105.

النداء الثاني: في مقابل أعداء اللّه، ومعناه الصمود والثبات المطلق بوجه العدو وعدم خشيته، وعدم التهيّب منه، أو الانفعال أمامه، ومن المهم جداً أن لا ينفعل المرء مقابل عدوّه.

واليوم تتركّز جميع مساعي العالم المادي المستكبر ــ أي الدول الإستكبارية الممسكة بزمام شؤون الاقتصاد والتسليح في العالم، والتي تهيمن في كثير من الحالات أيضاً على ثقافة الكثير من البلدان ــ على تحطيم أية مقاومة حيثما كانت، عن طريق إثارة انفعالها؛ الانفعال أمام العدو من أفدح الأخطاء القاتلة.

أمريكا وحقوق الإنسان

العدو يجب أن يؤخذ في الحسبان من حيث عدائه، أي الاستعداد له وعدم الإستهانة به، ولكن لا ينبغي خشيته ولا الوقوع تحت طائلة تأثيره، ولا اتخاذ مواقف انفعالية إزاءه.

العدو يحرص على إثارة انفعالات المجتمعات الأخرى؛ وهو اليوم أكثر ما يعوّل على هذا الجانب في الأبعاد الثقافية والسياسية؛ تارةً يثيرون الصخب حول قضية المرأة، ويحدثون ضجّة حول حقوق الإنسان تارةً أخرى، أو يتحدثون عن الديمقراطية، أو يؤججون في وقت آخر زوبعة حول حركات التحرر، وغرضهم من كل هذا هو إثارة انفعال الطرف المقابل.

ومن أكبر الأخطاء أن نتحدث في القضايا التي يثيرون حولها الضجيج الإعلامي، بشكل يوحي وكأننا نريد استرضاءهم، هذا هو الانفعال.

من الخطأ أن نتحدث في مضمار حقوق الإنسان بأسلوب الاسترضاء لهم؛ لأنهم هم الذين لا يعيرون أية قيمة لحقوق الإنسان بمعناها الحقيقي، إلاّ أنهم جعلوا منها هراوة يلوّحون بها في بعض بقاع العالم التي يبغون مهاجمتها.

أصبحت أمريكا على رأس دعاة حقوق الإنسان في العالم! قبل اندلاع الحرب المفروضة, كانت أمريكا تدرج الحكومة العراقية في قائمة الدول الداعمة للإرهاب.

وفي عامي 1361 و 1362هــش [82 ــ 1983م] حين استطاع مقاتلونا البواسل سحق العدو وإخراجه من أراضينا, إضطر العدو البعثي إلى استخدام الأسلحة الكيمياوية وأسلحة الدمار الشامل ضدّنا، مرتكباً بذلك جريمة حربية.

في تلك الظروف كانت الحكومة الأمريكية تعي ضرورة توفير الدعم للجبهة العراقية، ليكون بوسع الحكومة البعثية أداء دورها التآمري ضد نظام الجمهورية الإسلامية.

في تلك السنوات استخدمت الحكومة البعثية الأسلحة الكيمياوية، فرفعوا حينها اسم العراق من قائمة الدول التي ترعى الإرهاب! هذا هو أسلوبهم في الدفاع عن حقوق الإنسان.

أكبر مساند لأي نقض لحقوق الإنسان يشاهد في العالم هي الدول المستكبرة من أمثال أمريكا, التي أصبحت اليوم داعية لحقوق الإنسان، متّخذة إياها كذريعة لتهديد الدول التي تريد مجابهتها! وإذا انبرى جماعة من هذا الجانب وتحدثوا عن حقوق الإنسان لأجل إرضائهم فهو خطأ فادح، وموقف انفعالي أمام العدو.

شخصية المرأة في ظل الجمهورية الإسلامية

والحديث عن المرأة يصبّ في هذا السياق أيضاً, من بعد إقامة حكومة الحق، استطاعت النساء في الجمهورية الإسلامية ــ والحمد للّه ــ العثور على شخصّيتهن الحقيقية إلى حدٍ بعيد، وأصبحت لهن مشاركة واسعة في مختلف الميادين؛ تعكس مدى عظمة واندفاع المرأة المسلمة، وهو ما لمستموه لدى هذه المرأة ــ أم الشهيد ــ ولدى سائر النساء الشجاعات من أمهات الشهداء, وأنا حيثما قابلت أمهات الشهداء وجدتهن أقوى شكيمة حتى من آباء الشهداء, وغالباً ما يمكنكم مشاهدة مثل ذلك في المعنويات التي تحملها هؤلاء الأمهات الماجدات.

هذه هي عظمة المرأة المسلمة في الميادين السياسية والثقافية, ثم إنّ هؤلاء يرفعون عقيرتهم ويثيرون الضجيج حول هدر حقوق المرأة في الجمهورية الإسلامية!

من الخطأ أن نحاول التحدّث عن المرأة بما يتعارض و رأي الإسلام ــ حديث 165.

من الخطأ أن نحاول التحدّث عن المرأة بما يتعارض ورأي الإسلام ــ الذي هو مدار عزّتها ــ من أجل استرضائهم.

لماذا يتحدث البعض عن المرأة, أو عن حقوق الإنسان بشكل يوحي وكأننا يجب أن نسعى لتقريب أنفسنا إلى آراء الغربيين ومماشاتهم؟ إنّهم مخطئون, بل أولئك الذين يجب أن يقرّبوا آراءهم منّا، وهم الذين يفترض بهم أن يصححوا آراءهم المغلوطة والباطلة في ما يخص قضية المرأة وحقوق الإنسان، والحرية، والديمقراطية؛ لتطابق آراء الإسلام، لا أن يتخذ البعض من هذا الجانب مواقف انفعالية.

أجل، النداء الثاني للشهيد ــ وهو ما طبقه عملياً ــ هو التمسّك بالاستقلالية الإسلامية والصمود، وأن لا تذوب الإرادة في إرادة العدو، وعدم خشيته أو تهيّب قوّته الجوفاء، وإدراك أهمية الاتكال على الذات, والتوكل على اللّه في جميع الأُمور الحياتية.

وقد جسّد الشعب الإيراني هذا في جميع القضايا، وعليه أن يجسده في المستقبل أيضاً.

برهن الشعب الإيراني أنه غير مستعد على الإطلاق للتراجع خطوة واحدة أمام أطماع وتجاوزات العدو، أو التخلّي عن مبادئه الإسلامية من أجل استرضائه، وهذا هو الموقف المطلوب.

وقد أبدى الشعب الإيراني في القضايا الحساسة القائمة حالياً في مجال السياسة الخارجية، وفي مجال انتخابات رئاسة الجمهورية مواقف جيدة، وسيكون على نفس المنهج في المستقبل أيضاً.

العدو يطمح يُوجِد أن يجد له موطئ قدم في الشؤون السياسية أو الثقافية، ليقحم نفسه في الجو الثقافي للشعب الإيراني، لكن الشعب الإيراني متمسّك بموقفه بصلابة.

ولوحظ أنّ الأعداء يبدون آراءهم حتى في مرشحي رئاسة الجمهورية، ويعرضون بشأنهم الأقوال والتحليلات، ويشيرون إلى أنّ هذا المرشح أقرب إلى الغرب، أو ذلك المرشح أكثر دفاعاً عن الإسلام، وغيره أقل دفاعاً عنه! ومعنى هذا أنّ الأعداء يحاولون إقحام أنفسهم في جميع الأمور.

لكن الشعب الإيراني سيبقى مصرّاً على مبادئه الإسلامية في جميع الميادين ــ وهذا ما يجب أن يعيه العالم بأسره ــ ومن جملة تلك المبادئ, مبدأ مقارعة الاستكبار, والنزعة الإستكبارية لدى الدول التي تبغي العثور على موطئ قدم لها في الشؤون الداخلية لبلدنا, وشعبنا سيستعمل رأيه بدقّة.

إذا أبدا أي من مرشحي رئاسة الجمهورية لين أمام أمريكا وأمام تدخل الدول الغربية، وأمام الهجمة الثقافية والسياسية التي يقودها الأجانب، فليعلم كل العالم أنّ شعبنا لن يصوّت لصالح شخص كهذا.

الشعب يصوّت لمن يتوسّم فيه التصدّي لأمريكا, ولأطماع الدول المعتدية والغاشمة التي تبغي فرض إرادتها على الشعب الإيراني، ولمن يقاوم الغزو الثقافي الأجنبي، والشعب يميل أكثر لمن يلمس فيه هذه المواقف.

نحن إنما نتحدث هنا عن الموقف الأساسي العام للشعب، ولكن من المحتمل وجود بضعة أفراد لهم أذواقهم الخاصّة ويفكّرون بأسلوب معاكس لما يفكّر فيه الشعب، ولا شأن لنا بأمثال هؤلاء، أمّا السياق العام للشعب الإيراني فهو ذاك.

مواقف الشعب الإيراني هي ذات المواقف التي ثار من أجلها، ومن أجلها قاوم ثماني عشرة سنة، واضطلع بحرب استمرت ثمان سنوات, هذا ما ينبغي أن تعرفه شعوب العالم، وستعرفه طبعاً.

أنا على ثقة من أنّ الألطاف الإلهية، والتفاتات ولي اللّه الأعظم (أرواحنا فداه) والأدعية الزاكية للروح الطاهرة لإمامنا الراحل ستكون مدعاة ليكون اللّه في عوننا، وستحقق لهذا الشعب بإذنه تعالى ما فيه صلاحه في دينه ودنياه, وسيشهد الشعب الإيراني بمشيئة اللّه ولطفه عهداً آخر من الرقي والازدهار.

أرجو أن تكون الأرواح الطيبة للشهداء مبتهجة بنا وداعية لنا عند اللّه بتحقيق التطلعات الإسلامية النبيلة، طالبة مزيداً من لطف اللّه وفضله على الشعب الإيراني.

والسلام عليكم ورحمة اللّه وبركاته